

في مدينة بروسة (١)

للدكتور عبد الوهاب عزام

هذه بروسة الجميلة تشرف العين على سهلها المشجر ، تلوح
سقوفها السنمة من خلال أشجارها مثورة في سفح الجبل
وحضيضه . وهذا « يشيل جامع » الذي شاده السلطان العظيم
« مجدد الدولة » محمد بن بايزيد ، وهو الذي اختاره القدر ، بعد
أن قسمت أخوته الخطوب ، ليجمع شتات الدولة بعد أن انفرط
عقدها في موقعة انقره ، وثبت الصاعقة رهن الحبس والتقييد (٢)
وبعد أن تنازع أشبال بايزيد ميراث أبيهم ، وتمادى بهم الخلاف
بضعة عشر عاماً . لقد قدر لحمد أن يستأنف السير في سبيل المجد
الذي سلكه آباؤه . أين محمد ومجد محمد ؟ تجيبك هذه القبة الخضراء
وراء المسجد . فزناك رفات السلطان وبعض أبنائه .

وانظر إلى اليمين فهذا المسجد المشرف بين الأشجار على السفح ،
والذي يحاول السرو الباسق حوله أن يطاول مناراته ، هو مسجد
الأمير محمد البخاري وهذه قبة ضريحه . وكما تحت هذه الأشجار
من قبور عازت بقبر هذا الرجل الصالح . ولله هذا الرجل العظيم ،
فما ينسى له التاريخ صرامته في الحق ، ومجاهدة السلطان بالنصح
واللوم .

كان السلطان بايزيد يتم بالبحر ، فلما بني مسجده الكبير دعا
الأمير البخاري ليراه ، وبينهما يقلبان النظر في بناء المسجد قال
السلطان للشيخ : ما ترى في هذا المسجد العظيم ؟ قال : حسن ،

(١) كتبت في بروسة نحي يوم الجمعة ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٩

(٢) الصاعقة (يلدرم) لقب السلطان بايزيد الأول

الاسلامية خفاقاً في ذلك الباب الذي بقيت السفن المصرية قروناً
تتمطى صهوته ، وتجووس خلاله في عزه وثغاره .

إن مصر تستأنف نشاطها البحري في ميدان السلم ، لا
في ميدان الحرب ؛ وليس غريباً أن يكون لها بواخر تشق الباب ،
ولكن الغريب أن لا يكون لها بواخر ، وثورها محط البواخر
الأجنبية من أقاصي العالم

ولكن لابد أن تقام في كل زاوية من زواياه حانة لياتي السلطان اليه !
وأرى ذات اليمين جامع بايزيد تلوح قبتاه ومناراته ، ومجاذبه
قبة تحنو على قبر السلطان العظيم . سطور من الخطوب والعبر
لا تجد العين منها مهرباً .

ألا ترى إلى اليسار (أدلوجامع) ذا العشرين قبة ؟ هذه قبته
الكبيرة التي تنفذ الأضواء منها إلى الحوض الكبير ، فيسيل عليه
النور في ماء النافورة المنبجس ليل نهار ؛ وكأن خيرها دعوة إلى
الصلاة لا تقتر ، وتسبيح مع المسيحين لا يصمت . وماذا على
جدران هذا المسجد من بدائع الخط وسطور الجمال ؟ لقد اقتن
الكتاب على مر العصور في ترينها بكل آية من الخط الجميل ، وانها
لحجة قائمة على الذين يريدون هجر الخط العربي إلى الكتابة
اللاتينية . وكلما أدت عيني في هذا المسرح الرائع عادت إلى هاتين
النارتين البيضاءتين المشرفتين على الجامع كأنهما شمعتان . وكل
مآذن بروسة تشبه الشمعات ، وما أشبه للمآذن بالمصايح : تهدي
في ظلمات الضلال ، ويحس سميت منارات .

وانظر هذا البرج البعيد على سفح الجبل في مكان من القلعة
القديمة حيث قبرا الرجلين العظيمين عثمان وأورخان .

لست أرى جامع مراد الثاني وضريحه والقبور التي أطافت
به وبينها قبر جم الأمير التمس ، ولا أبصر جامع مراد خداندكار
شهيد قوصوه ، ولا قبره مشرقاً على السهل منطوياً على سره
وجلاله ، ولا ينابيع المياه الحارة والباردة منبجسة بفنائه . وما أجمل
ينابيع الماء في بروسة مساجدها وطرقها تلتقي السائر حيناً توجه
متدفقة بالحياة ليلاً ونهاراً .

وأين مسجد أورخان أقدم مساجد بروسة ؟ غيبه عن عيني

الجليل والشجر ، ولكنه لم ينب عن القلب وجهه المتواضع

وليت شعري ما خطب هذه المآذن الصغيرة ، والقباب

الخاملة المثورة في المدينة ؟ بناها قوم لم يبلغوا من حظ الدنيا
ونباهة الذكر ما بلغ هؤلاء . ولعلمهم كانوا أسمد حياة ، وأعظم عند
الله شأناً . وإن الجاه والمجد والسلطان وما يحيط بها من ضوضاء هذه
الحياة لأسوأ ما يكافأ به الرجل الطيب والنفس الزكية في هذا العالم .
فلا تناس على ما فات الصالحين من حيلة هذه السوق .